الصدُّ والإخراجُ

محسن الأسدي

﴿... وَصَدٌّ عَن سَبيلِ ٱللَّهِ وَكُفرٌ بِهِ وَٱلمَسجِدِ ٱلحَرامِ وَإِخراجُ أَهلِهِ مِنهُ أَكبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾

هذا جزءٌ من الآية المباركة التالية:

﴿يَسأَلونَكَ عَنِ ٱلشَّهرِ ٱلحَرامِ قِتالٍ فيهِ قُل قِتالٌ فيهِ كَبيرٌ... وَٱلفِتنَةُ أَكبَرُ مِنَ ٱلقَتلِ وَلا يَزالونَ يُقاتِلونَكُم حَتّىٰ يَرُدّوكُم عَن دينِكُم إِنِ ٱستَطاعوا وَمَن يَرتَدِد مِنكُم عَن دينِهِ فَيَمُت وَهُوَ كافِرٌ فَأُولٰئِكَ حَبِطَت أَعمالُهُم فِي ٱلدُّنيا وَٱلآخِرَةِ وَأُولٰئِكَ أَصحابُ ٱلنّارِ هُم فيها خالِدونَ﴾.[1]

الوقوف عند المسجد الحرام، وبالذات عند فقرتي الصدِّ عنه وإخراج أهله منه، هو ما أتمنى التوفيق فيه في المقالة هذه. وبدايةً هناك:

---

١ . البقرة: ٢١٧.

أولاً: أمران محرمان:

الزمان: الشهر الحرام.

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَاوٰتِ وَٱلأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.[1]

فالأشهر الحرم الأربعة: ثلاثة متتابعة هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ويبدو أنّها حرمت تسهيلاً للحجيج وأماناً لهم، حتى يؤدوا مناسكهم في أجواء سالمة آمنة تطمئن فيها قلوبهم، فليس فيها غزو ولا عدوان ولا تجاوز أو اعتداء أو أذى.. وقد صرّح ابن عاشور بأنَّ حرمتها جاءت لوقوع الحج فيها ذهاباً ورجوعاً وأداءً ..

وأنَّ الآية دليل على تحريم القتال في الأشهر الحُرم، وتقرير لما لتلك الأشهر من الحرمة التي جعلها الله لها منذ زمن قديم، لعله من عهد إبراهيم عليه السلام فإن حرمة الزمان تقتضي ترك الإثم في مُدَّته.

وهذه الأشهر هي زمن للحج ومقدماته وخواتمه وللعمرة كذلك، فلو لم يحرم القتال في خلالها لتعطل الحج والعمرة، ولذلك أقرها الإسلام أيام كان في بلاد العرب مشركون؛ لفائدة المسلمين وفائدة الحج، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ...﴾.[2]

وشهر واحد مفرد وهو رجب وكان في الجاهلية شهر العمرة وقد حرَّمته مضر كلها؛ ولذلك يقال له: رَجبُ مضر. فالآية قررت حرمة القتال في الأشهر الحرم لحكمة تأمين سبل الحج والعمرة، إذ العمرة أكثرها في رجب، هذا ما

١ . التوبة: ٣٦.

٢ . المائدة: ٩٧.

ذكره ابن عاشور أيضاً.[١]

ومعنى الحرم: أن المعصية فيها أشد عقاباً، والطاعة فيها أكثر ثواباً، والعرب كانوا يعظمونها جداً حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه لم يتعرض له.[٢]

وهذا المعنى للحرمة يشمل الزمان الحرام كالأشهر الحرم، وأيضاً المكان الحرام كالمسجد الحرام.

و المقطع القرآني أعلاه، ووفقاً لسبب النزول، يتحدث عن:

الزمان: هو شهر رجب، وهو واحد من الأشهر الأربعة المحرمة.

المكان: المسجد الحرام

المكان: هو المسجد الحرام، وله أسماء أخرى عديدة: البيت، أو البيت الحرام، أو الكعبة، أو البيت المعمور، و العتيق، و البلد .. وهو ما صرحت به آيات قرآنية كريمة، منها:

البيت:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً...﴾.[٣]

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ...﴾.[٤]

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ...﴾.[٥]

ففي هذا قوام لمصالحهم ديناً ودنياً ...

وفي آيات غيرها.

---

١ . ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، الآية: ٢١٧ البقرة.

٢ . تفسير مفاتيح الغيب للرازي، الآية: ٣٦ التوبة.

٣. البقرة: ١٢٥.

٤ . البقرة: ١٢٧.

٥ . المائدة: ٩٧.

البيت العتيق:

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.[١]

البيت المعمور:

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾.[٢]

البلد:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ...﴾.[٣]

وثانياً:

إنَّ هذه الحرمة مكاناً وزماناً تعطل في حالة انتهاكها، صحيح أنّ القتالَ في المسجد الحرام محظور ومحرمٌ، وانتهاكه أمرٌ خطيرٌ، وصحيح أن ذلك القتال محرمٌ وكبيرٌ في هذه الأشهر، لكن هناك أربعة أمور ارتكبت من قبل المشركين هي أعظم عند الله تعالى من حرمة القتال في الشهر الحرام، وهي:

- **الصدُّ عن سبيل الله تعالى**.
- **الكفرُ به**.
- **الصدُّ عن المسجد الحرام**.
- **إخراجُ أهله منه**.

فهذه الأربعة هي الأكبر عند الله .

والذي يبدو أنَّ هذه ذكرت أفعالاً خطيرةً ارتكبها المشركون في مكة، تُنهي

---

١ . الحج: ٢٩، ٣٣.
٢ . الطور: ٤.
٣ . البقرة: ١٢٦.

الحرمة للمكان الحرام وللزمان الحرم. وإلا فإنَّ ما فعلوه كثيرٌ من تعذيبٍ وقتلٍ وتشريدٍ وسلبٍ للأموال، وانتهاكٍ لحرمات المؤمنين... والذي يفعل كلَّ هذا ليس من حقّه أن يعترض على قتالٍ قد يكون حدث في شهر حرام، أو في مكان حرام؛ فالصدُّ عن سبيل الله والكفر بالله وإخراج أهل المسجد الحرام من الحرم أكبرُ عند الله، والشرك والكفر أعظمُ، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

وأما ثالثاً:

فكلُّ ما أريده من هذا المقطع القرآني، الذي يتوفر على أمور، هو الوقوف عند أمرين منها يخصّان المسجد الحرام، والمتمثلين بعملين أوقعهما مشركو مكة واقترفتهما أيديهم ضدَّ هذا المسجد المبارك، والذي يمتلك قدسيّةً كبيرةً، ودوراً عظيماً في حياة المسلمين الدينية والدنيوية، عبر صدّ الناس عنه، وعبر إخراج أهله منه، وقد ترتبت على فَعلَتِهم هذه عواقبُ عديدةٌ.. وحيث إنَّ هذا المقطع، نزل بسبب ما حصل لسرية عبدالله بن جحش وقتلهم عمرو بن الحضرمي وأخذهم أموالهم وكان ذلك على ما قيل في شهر رجب، وبعد أن راح المشركون يتهمون المسلمين بأنهم بدأوا القتال بالأشهر الحرم وقد تعمدوا التغافل عما فعلوه من جرائم بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: صدّ المشركين لمن يريد الإيمان بالله وبرسوله وفتنتهم لمن آمن وسعيهم في ردّهم عن دينهم وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام الذي هو بمجرده كافٍ في الشرِّ والضرر وانتهاك الحرمات، فكيف وقد كان في شهرٍ حرامٍ وبلدٍ حرامٍ؟!

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ أي: أهل المسجد الحرام وهم النبيُّ ﷺ وأصحابه فهم الأحقُّ به، وهم عُمّارُ المسجد على الحقيقة وليس غيرهم من المشركين

فأخرجوهم ﴿مِنْهُ﴾ ومنعوهم من الوصول إليه فكل واحدة من أفعالهم هذه هي ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام والذي راحوا يعيبونه على بعض المسلمين، فكيف وقد اجتمعت كلها فيهم، وغدت سلوكَهم اليومي الذي يمارسونه ضدّ المؤمنين برسالة الله تعالى ورسولهﷺ؟!

سبب النزول:

أما عن سبب النزول، فقد ذكر الشيخ الطبرسي في مجمع البيان، وهو يتعرض لتفسير هذه الآية ٢١٧ من سورة البقرة التالي: «قال المفسرون: بعث رسول الله سريّة من المسلمين، وأمَّر عليهم عبدالله بن جحش الأسدي، وهو ابن عمّة النبيِّﷺ، وذلك قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمه المدينة، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة، فوجدوا بها عمرو بن الحضرمي في عير تجارة لقريش في آخر يوم من جمادى الآخرة، وكانوا يرون أنه من جمادى وهو رجب، فاختصم المسلمون، فقال قائل منهم: هذه غرة من عدو وغُنْم رزقتموه، ولا ندري أمن الشهر الحرام هذا اليوم أم لا؟! وقال قائل منهم: لا نعلم هذا اليوم إلا من الشهر الحرام، ولا نرى أن تستحلوه لطمَع أشفيتم عليه (أي أشرفتم عليه)، فغلب على الأمر الذي يريدون عرض الحياة الدنيا، فشدوا على ابن الحضرمي، فقتلوه وغنموه عيره، فبلغ ذلك كفار قريش، وكان ابن الحضرمي أول قتيل قتل بين المشركين والمسلمين، وذلك أول فيء أصابه المسلمون، فركب وفدُ كفار قريش حتى قدموا على النبيِّﷺ فقالوا: أيَحلّ القتال في الشهر الحرام ؟! فأنزل الله هذه الآية».

فالذي يظهر أن المسلمين ظنوا أن هذا اليوم الذي وقع منهم القتال فيه هو آخر يوم من جمادى الآخرة؛ لذلك ندموا على ما فعلوه بعدما تبين لهم

خطؤهم، حيث سقط في أيديهم، وظنوا أنهم هلكوا حتى أنزل الله تعالى هذه الآية، التي يمكن استفادة براءتهم منها، بعد أن وجد المشركون فيما حدث في سرية نخلة فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام.. فقد صرحت الآية بأن القتال في الشهر الحرام إثم كبير، ولكن ما عليه المشركون أكبر وأعظم؛ فهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء، بإخراج أهله منه؛ وهم من صدَّ عن سبيل الله والبيت الحرام، ولذلك كان على المسلمين أن يقاتلوهم في أي مكان وزمان.

إنَّ مشركي مكة لم يكتفوا بأن يكون كفرهم وشركهم نظرياً أو عقيدةً مجردةً عن الفعل، بل راحوا يحولونه إلى سلوكٍ فعليٍّ لهم، يمارسونه مع من يختلفون معهم بالعقيدة والرأي والسلوك، بأن حوّلوا كفرهم وشركهم إلى عدوان بغيض وعمل سيءٍ، فاتخذوا الصدَّ عن سبيل الله بشكل عام، وعن المسجد الحرام بشكل خاص ديدنَهم وعملَهم الدائب والمستمر؛ هذا ما نجده في التعبير القرآني، فكلمة «كفروا» في الآية:٢٥ الحج: ﴿**إن الذين كفروا**﴾ جاءت بصيغة الماضي، بينما كلمة «يصدون» ﴿**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾، و في الآية:٣٤ الأنفال، وهكذا في آيات أخرى: ٤٥ ،٤٧ الأنفال و٣٤ التوبة و١٩ هود و٣ إبراهيم؛ ﴿**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ**﴾ جـــاءت بصيغة المضارع، الدالة على الحال والمستقبل، فالكفر قرار واحد، تمسكوا به، أما الصد عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، فهو عمل يتصف بالاستمرارية والدوام...

يقول ابن عاشور:[1] وجاء ﴿**يصدون**﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم وأنه دأبهم سواء فيه أهل مكة وغيرهم؛ لأن البقية ظاهَرُوهم على ذلك الصد ووافقوهم. أما صيغة الماضي في قوله: ﴿**إن الذين كفروا**﴾ فلأنّ

١ . التحرير والتنوير: الآية ٢٥ الحج.

ذلك الفعل صار كاللقب لهم مثل قوله: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا...﴾.[١]

وأيضاً عن هذه الآية وما جاء فيها يقول ابن عاشور:

﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾.

«إنحاء على المشركين وإظهار لظلمهم بعد أن بكَّتهم بتقرير حرمة الأشهر الحرم الدال على أن ما وقع من أهل السرية من قتل رجل فيه كان عن خطإ في الشهر أو ظن سقوط الحرمة بالنسبة لقتال العدو، فإن المشركين استعظموا فعلاً واستنكروه وهم يأتون ما هو أفظع منه، ذلك أن تحريم القتال في الشهر الحرام ليس لذات الأشهر؛ لأن الزمان لا حرمة له في ذاته، وإنما حرمته تحصل بجعل الله إياه ذا حرمة، فحرمته تبع لحوادث تحصل فيه، وحرمة الأشهر الحرم لمراعاة تأمين سبيل الحج والعمرة ومقدماتها ولواحقها فيها، فلا جرم أن الذين استعظموا حصول القتل في الشهر الحرام، واستباحوا حرمات ذاتيَّة بصدّ المسلمين، وكفروا بالله الذي جعل الكعبة حراماً، وحَرَّم لأجل حجها الأشهرَ الحرم، وأخرجوا أهل الحرم منه، وآذوهم، لأَحْرِياء بالتحميق والمذمة، لأن هاته الأشياء المذكورة كلها محرمة لذاتها لا تبعاً لغيرها. وقد قال الحسن البصري لرجل من أهل العراق جاء يسأله عن دم البعوض إذا أصاب الثوب هل ينجسه، وكان ذلك عقب مقتل الحسين بن عليّ رضي الله عنهما «عجباً لكم يا أهل العراق تستحلون دم الحسين وتسألون عن دم البعوض؟!».

إذن ومن خلال ذلك، هناك أمور ذكرها المقطع القرآني، أقف عند أمرين منها، وهما:

---

١ . الحج: ٢٣.

أولاً: الصدُّ عنه.

ثانياً: إخراج أهله منه.

وقبل ذلك نوجز شيئاً عن المسجد الحرام وأوليائه وأهله، فالمسجد الحرام ذكره التنزيل العزيز بهذه التسمية خمس عشرة مرةً، و قد شاءت السماءُ له أن يحتلَّ قلب مدينة مكة المكرمة، ويكون أول بيت وضع للناس، بقعةً مباركةً، وحرماً طاهراً مطهراً، وقياماً للناس وهدًى للعالمين... ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾.[١] تتوسطه الكعبة المشرفة، قبلة المسلمين أينما كانوا، وأن يكون ساحةً لأداء شعائر الله تعالى في الحج والعمرة. كما أنه بُني للناس جميعاً، لا لفئة مهما شرفت، ولا لأمّة مهما عظمت، يستوي فيه الجميع: المقيمون فيه الملازمون له، والقادمون له من البادية وأطرافها البعيدة، وقد وصف التنزيل العزيز الطائفة الأولى بمفردة «العاكف» فيما وصف الأخرى بمفردة «الباد»:

﴿... **وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ** ...﴾.[٢]

كما أنَّ المسجد الحرام أسس لكلِّ من يشمله الأذان بالحج الذي أمر به إبراهيم عليه السلام ﴿**وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾.[٣]

فهو لكل طائف وعاكف وراكع وساجد، بعد أن بوّأ الله تعالى مكانه لخليله: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً**﴾ وأمره وابنه إسماعيل بتطهيره: ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ**﴾.

﴿**وَعَهِدْنَآ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ**

---

١. آل عمران: ٩٦.

٢. الحج: ٢٥.

٣. الحج: ٢٧.

﴿ٱلسُّجُودِ﴾.

كما أنه تعالى جعله مثابةً للناس أمناً وقياماً لا لطائفة دون آخرى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ فغدا مهوى الأفئدة، لا أفئدة أهله المحيطين به، بل أفئدة العالمين من أي مكان جاؤوا، ومن أي بقعة قدموا... والآية واضحة في هذا: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.[١] ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِياماً لِّلنَّاسِ﴾.[٢] .. وأمر الجميع باتخاذ المقام مصلى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وصار المسجد قبلة للمسلمين أينما كانوا: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.[٣]

كما أنه الحرام أي الممنوع من فعله، فكان (الحرام) وصفاً للمسجد، فصار المسجد الحرام، والبيت الحرام، وبالتالي فهو الحرام عن كلِّ طاغية متجبر وظالم ومتعسف، ليس لهم مكان فيه، وليس لظالم دور فيه، وبما أن الشرك ظلم، فالمشركون لا وظيفة لهم فيه، وليس لهم أن يأمروا وينهوا ويمنعوا عنه.. وهكذا مكة المكرمة التي صارت به حراماً: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾.[٤]

وصار هو وما حوله بسببه حرماً آمناً: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً﴾.[٥]

---

١ . إبراهيم : ٣٧.
٢ . المائدة: ٩٧.
٣ . البقرة: ١٤٤.
٤ . النمل: ٩١.
٥ . القصص: ٥٧.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً﴾.[١]

فهو بهذا كلّه وغيره وضع وشرع للناس جميعاً، وهو بهذا وبغيره سلب أي حقٍّ لمشركي مكة في المسجد، وأي اختصاص لهم به دون غيرهم وإن بعدوا، بل ثبّت السبب الذي يبرّر إدانتهم فمحاسبتهم.

وهنا يذكر ابن عاشور سبب مؤاخذته لمشركي مكة، وأنّهم لا مزية لهم في وجودهم بمكة.. حيث يقول عن هذا الوصف أنّه جاء:

«للإيماء إلى علّة مؤاخذة المشركين بصدّهم عنه؛ لأجل أنهم خالفوا ما أرادالله منه، فإنه جعله للناس كلهم يستوي في أحقية التعبّد به العاكفُ فيه، أي المستقرّ في المسجد، والبادي، أي البعيد عنه إذا دخله. والمراد بالعاكف: الملازم له في أحوال كثيرة، وهو كناية عن الساكن بمكة؛ لأنّ الساكن بمكة يعكف كثيراً في المسجد الحرام، بدليل مقابلته بالبادِي، فأطلق العكوف في المسجد على سكنى مكة مجازاً بعلاقة اللزوم العرفي. وفي ذكر العكوف تعريض بأنهم لا يستحقون بسكنى مكة مزية على غيرهم، وبأنهم حين يمنعون الخارجين عن مكة من الدخول للكعبة قد ظلموهم باستئثارهم بمكة».[٢]

ويبدو أنَّ التعبير بالمسجد الحرام أو بالبيت الحرام أو بالكعبة يُراد منه جميع الحرم، لا خصوص الكعبة البناء المنظور، ولا المسجد أو البيت بمساحته المحيطة ببنية الكعبة، بل الأوسع من ذلك، وقد حدَّ بالمواقيت المعروفة...

هذا، وأن لهم كما يبدو أقوالاً في تعيين المراد منه، كما صرح به العديد من المفسرين..

فمن يذهب إلى أنه لا فقط المسجد المعروف بحدوده، بل المراد به مكة.

وهناك من يذهب إلى أنه مجموع مساحة الحرم.

---

١ . العنكبوت ٦٧.

٢ . التحرير والتنوير: الآية.

أوهو خصوص المسجد المبارك المحيط بالكعبة. فقد ورد أن الحرم كله مسجد، فعن عطا: أن المراد بالمسجد الحرام الحرم. والحرم كله مسجد وقبلة.

والمسجد الحرام في الاصطلاح كما قال النووي قد يراد به الكعبة فقط وقد يراد به المسجد حولها معها وقد يراد به مكّة كلها مع الحرم حولها وقد جاءت نصوص الشرع بهذه الأقسام...

ويقول ابن عاشور: والمسجد الحرام المسجد المعهود عند المسلمين، والحرام المجعول وصفاً للمسجد هو الممنوع. أي الممنوع منع تعظيم وحرمة، فإن مادة التحريم تؤذن بتجنب الشيء فيفهم التجنب في كل مقام بما يناسبه. وقد اشتهر عند العرب وصف مكة بالبلد الحرام أي الممنوع عن الجبابرة والظلمة والمعتدين ووصف بالمحرم في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿...عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ...﴾[1] أي المعظم المحترم وسمي الحرم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾.[2]

فوصف الكعبة بالبيت الحرام وحرم مكة بالحرم أوصاف قديمة شائعة عند العرب، فأما اسم المسجد الحرام فهو من الألقاب القرآنية جعل علماً على حريم الكعبة المحيط بها وهو محل الطواف والاعتكاف ولم يكن يعرف بالمسجد في زمن الجاهلية إذ لم تكن لهم صلاة ذات سجود والمسجد مكان السجود فاسم المسجد الحرام علم بالغلبة على المساحة المحصورة المحيطة بالكعبة ولها أبواب منها باب الصفا وباب بني شيبة ولما أطلق هذا العلم على ما أحاط بالكعبة لم يتردد الناس من المسلمين وغيرهم في المراد منه فالمسجد الحرام من الأسماء الإسلامية قبل الهجرة وقد ورد ذكره في سورة الإسراء وهي مكية.

---

١ . إبراهيم: ٣٧.

٢ . القصص: ٥٧.

والجمهور على أن المراد بالمسجد الحرام هنا الكعبة، لاستفاضة الأخبار الصحيحة بأن القبلة صرفت إلى الكعبة، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يستقبل الكعبة، وأنه صلى إلى الكعبة يوم الفتح، وقال: هذه القبلة، قال ابن العربي: «وَذَكَرَ المسجد الحرام والمراد به البيت، لأن العرب تعبر عن البيت بما يجاوره أو بما يشتمل عليه». وعن ابن عباس: البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل المشرق والمغرب. قال الفخر: وهذا قول مالك، وأقول: لا يعرف هذا عن مالك في كتب مذهبه.[١]

هذا وأن المسجد الحرام كان يضمُّ معظم بيوت أهل مكة فى زمن الرسول ﷺ. وأن معظم مدينة مكة المكرمة القديمة تعدُّ ضمن المسجد الحرام. ولو قدر للحرم المكي الاتساع، فقد يصل حدود المشاعر المقدسة فى مكة.

إذن فأهل مكة ماداموا مشركين، فهم ليسوا أهلاً للمسجد الحرام، وليسوا أولياءه، وماداموا لا يؤمنون بربِّ هذا البيت، وبما أراده الله تعالى منهم عقيدةً وشريعةً، فهم لا يستحقون أن يُنسبوا إلى البيت الحرام بأي عنوان، فأهل المسجد هم أولئك الذين وردت بهم تلك الآيات، وأما أولياؤه فهم كلُّ من يتصف بالتقوى: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾.[٢]

إذن فمن كان أقوم بطاعة الله تعالى فهو أحق الناس بالمسجد وهم أهله الحقيقيون باعتراف السماء حين سمّتهم بذلك في قوله تعالى: ﴿**وإخراج أهله منه**﴾ فهؤلاء هم أهله، وقد أخرجوا لإيمانهم، فيما المشركون وإن كانوا ساكنين

---

١ . أنظر تفسير الكشاف٢ : ١٤٧؛ ومجمع البيان٣ :٢٠ ؛ و الموسوعة الفقهية الكويتية؛ والقاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً لسعدي أبي الجيب ٨٦-٨٧ ؛ تفسير التحرير والتنوير، سورة البقرة: ١٤٤.

٢ . الأنفال: ٣٤.

في مكة؛ لكنهم ليسوا أهله، كما هو مفهوم الآية.

ملاحظة:

وهنا تحضرني هذه الفائدة، وقد يكون سبقني إليها أحدٌ والله العالم بمراده ولكني أحب أن أسجلها، فلعلها تكون إشارةً وتنبيهاً آمل أن يبحث في صدقها. فالآية تقول: ﴿**وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ**﴾.[1] بعد أن نفت كونهم، أقصد المشركين، أولياء المسجد الحرام أو البيت الحرام.. وحصرت أولياءه بالذين هم متقون، الذين يتصفون بالتقوى، ومن المعروف أن سدنة البيت الحرام ورعاية المسجد وسقاية الحاج هم بنو هاشم، وبالتالي فيمكن أن تساق الآية دليلاً على إيمان أبي طالب، فهو من الموحدين المتقين، وهو من الذين يصدق عليهم أنه من أوليائه، ومن القائمين بحقوق البيت، ولا يمكن أن يكون ولياً وهو مشرك.

***

الصدُّ عنه.

لقد أكّد القرآن الكريم كما ذكرنا أنَّ أولياء هذا المسجد المبارك هم المتقون لا غيرهم، فماداموا يحملون هذه المنقبة (التقوى) فهم أهله بنصِّ الآية٣٤ الأنفال: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوَاْ أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾. وبهذا نفى التنزيل العزيز أن يكون الذين صدّوا عن المسجد الحرام وأخرجوا أهله منه أهل المسجد، بل وليسوا أولياءَه، فسحب الغطاء عنهم الذي كانوا يتسترون به، ويتفاخرون به، ويفرضون سيطرتهم وسلطانهم على الناس من خلاله، وما كونهم أشراف

---

١ . الأنفال: ٣٤.

مكة إلا بسبب ولايتهم لهذا المسجد، وها هو القرآن الكريم قد أنهى أهليتهم وولايتهم ومنقبة الشرف المذكورة، وقد خسروا كلَّ ذلك بصريح التنزيل العزيز.

الصدُّ لغةً:

ففي المعجم الوسيط: صدَّ عنه يصُدُّ صدًّا وصُدُودًا: أعرض. و صدَّ منه يصِدُّ صدًّا : ضجَّ وأعرض.

و في التنزيل العزيز: ﴿**وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**﴾.(١)

و صدَّ فلاناً عن كذا يصُدُّ صدًّا: منعه و صرفه، و في التنزيل العزيز: ﴿**فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ**﴾.(٢)

فهو صادٌّ من قوم صُدّادٍ، و هي صادَّة من نسوةٍ صوادٍّ. وفي مجمع البيان: الصَدّ والمنع والصرف نظائر يقال: صَدَّ عن الشيء يَصِدُّ صُدوداً وصَدّاً، إذا أعرض وعدل عنه، وصدّ غيره يصُده صدّاً إذا عدل به عنه ومنعه، والصَددَ ما استقبلك وصار في قُبالتك لأنه يعدل إلى مواجهتك..

وفي اللسان: صدَّ يصدُّ صداً: ضجَّ وعجَّ، والصدُّ من الجبل: ما يحول، والصديد: ما حال بين اللحم والجلد من القيح، وضرب مثلا لمطعم أهل النار. قال تعالى: ﴿**وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ، يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ**﴾.(٣)

و قال السرقسطي: وصد عن الشيء صدوداً، أعرض، وصدَّ أيضاً: ضجَّ.(٤)

ولطالما ترددت هذه المفردة (الصدُّ) على ألسنة الشعراء في قصائدهم،

---

١ . الزخرف: ٥٧.

٢ . النمل: ٢٤.

٣ . إبراهيم: ١٦ – ١٧.

٤ . أنظر: المعجم الوسيط؛ والمفردات للراغب؛ ولسان العرب؛ والأفعال٣: ٣٨٥. صدّ.

خصوصاً تلك التي يخاطبون بها عشّاقهم، وهذه أبيات مما عثرت عليه:

فيـمَ الجفـا وعـلامَ الصـدُّ والملـلُ ... مـا بالهـا انقطعـتْ مـا بيننا الرسـلُ
يـا أيهـا الصـدُّ الـذي وجـه العـلى ... منـه يُـزان بمنظـرٍ مطبـوعِ
نَسـيتُ وَما أنسَـى عِتاباً عـلى الصّدّ ... ولاخَفَـراً زَادَتْ بـهِ حُمـرَةُ الخـدِّ
ذرِ الصدَّ إني لست أقوى على الصدِّ ... وعُـد للـذي عوَّدتني منك مـن وُدِّ
فـإلى متـى هـذا الصـدود وذا الجفا ... فلقد جـوى من أدمعي مـا قد كفى
عذبينـي بـكل شيء سـوى ... الصـدّ فـما ذقت كالصـدود عـذابا

الصدُّ في التنزيل العزيز:

هو من الألفاظ المشتركة، وقد ورد بمشتقاته في القرآن الكريم اثنتين وأربعين مرةً، فالصدُّ يتوفر على أكثر من معنى، فالصدود والصد قد يكون انصرافاً عن الشيء وامتناعاً، نحو: ﴿**يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا**﴾.[١] وقد يكون صرفاً ومنعاً نحو: ﴿**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ**﴾.[٢] ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾.[٣] ﴿**وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾.[٤] ﴿**قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾.[٥] ﴿**وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ**﴾.[٦] ...إلى غير ذلك من الآيات.

وقد ذكر الصدُّ وبالذات عن المسجد الحرام في أكثر من آية قرآنية، معطوفاً في آيتين على الصدِّ عن سبيل الله، فإضافةً للآية موضع الكلام، جاء في الآية

١ . النساء :٦١.
٢ . النمل: ٢٤.
٣ . محمد: ١.
٤ . الحج: ٢٥.
٥ . البقرة :٢١٧.
٦ . القصص: ٨٧.

٢٥ الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ...﴾. وجاء في الآية: ٢ المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ... وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ...﴾.

والآية: ٣٤ الأنفال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ ٱللّٰهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

والآية: ٢٥ الفتح: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾.

إنَّ صفتي الكفر والصد وهما ما فعله المشركون، يقفان مانعاً بين الإنسان و قيامه بالعمل الصالح، أياً كان هذا العمل، أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر، أو مجرد أداء لمناسك البيت الحرام كطواف حول البيت أو سعي بين الصفا والمروة... والعمل الصالح هذا يقلق المشركين ويوأرّقهم، ولا يطيقونه، فنراهم

يندفعون إلى منع ذلك، و نصب العوائق أمام ممارسة الناس لحرياتهم المشروعة، هي حقهم الطبيعي لهم في أداء عباداتهم. فالكفر عقيدةً ومنهجاً وممارسةً وكل ما يستتبعه يقف حجر عثرة في طريق الإنسان حتى لا يتكامل مادياً ومعنوياً، وبالتالي لا يجلب لأخيه الإنسان فرداً وجماعةً وأمةً إلا الفساد والخراب بدل الإصلاح والبناء. وإلا الضرر وزرع الأحقاد والبغضاء بين بني البشر..

وهنا أذكر الصحابي الجليل سعد بن معاذ مثالاً للصدِّ المذكور، الذي فعله كبيرهم؛ كبير المشركين أبو جهل، حين انطلق سعد إلى مكة معتمراً، فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: أنظر لي ساعة خلوة؛ لعلي أن أطوف البيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟

فقال: هذا سعد.

فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعتَ إلى أهلك سالماً.

فقال له سعد ورفع صوته عليه : **أما والله لئن منعتني هذا؛ لأمنعك ما هو أشدّ عليكم منه: طريقك** على أهل المدينة. والمعروف من مشركي مكة أنهم مَنَعُوا المسلمين بعد هجرتهم من زيارة البيت الحرام.

هذا وأن ابن عاشور يقول: وسبيل الله: الإسلام، فصدهم عنه هو الذي حقق لهم عذاب النار، كما حقق اهتداءُ المؤمنين إليه لهم نعيمَ الجنّة.

والصدّ عن المسجد الحرام مما شمله الصدّ عن سبيل الله فخصّ بالذكر للاهتمام به، ولينتقل منه إلى التنويه بالمسجد الحرام، وذكر بنائه، وشرع الحجّ له من عهد إبراهيم عليه السلام. والمراد بصدّهم عن المسجد الحرام صدّ عرفه المسلمون

يومئذ. ولعله صدّهم المسلمين عن دخول المسجد الحرام والطواف بالبيت. والمعروف من ذلك أنهم مَنَعُوا المسلمين بعد الهجرة من زيارة البيت...

يقول ابن عاشور: «ومن ذلك مَا صنعوه يوم الحديبية. وقد قيل: إنّ الآية نزلت في ذلك. وأحسب أنّ الآية نزلت قبل ذلك سواء نزلت بمكة أم بالمدينة.

وعن الآية ٢٥ الحج ، يقول الطاهر بن عاشور: «هذا مقابل قوله: ﴿**وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ**﴾.[١] بالنسبة إلى أحوال المشركين، إذ لم يسبق لقوله ذلك مقابل في الأحوال المذكورة في آية: ﴿**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ**﴾.[٢] كما تقدم.

فموقع هذه الجملة الاستئناف البياني. والمعنى: كما كان سبب استحقاق المؤمنين ذلك النعيم اتّباعهم صراط الله، كذلك كان سَبَبُ استحقاق المشركين ذلك العذَاب كفرَهم وصدّهم عن سبيل الله».

فالمشركون في مكة، مع كفرهم، ظلّوا يصدون عن سبيل الله، ويصدون عن المسجد الحرام، ويخرجون أهل المسجد منه، وكل هذا يسجل إثماً عظيماً وظلماً وفساداً، وكلها تتصف بأنها الأكبر في حسابه تعالى؛ لأن ذلك الصدّ عن سبيل الله تعالى يعدُّ صدّاً عن الصراط المستقيم، الموصل إلى الهدى والحق والعدل والرشد والخير والسداد، وبالتالي يكون هذا الصدُّ صارفاً الناس عن السبيل الذي فيه الحياة للقلوب والأنفس، ويطهرها من الرجس والشرك وعبادة الأوثان، ويحررالناس من الخضوع للطاغوت واتباع الهوى، ويجعلهم وقد خضعوا لربهم مخلصين له الدين، وبهذا ينالون فوزاً عظيماً..

إذن فالصدّ عن المسجد الحرام، وإبعاد أهله الحقيقين المؤمنين، وهما أمران يتفرعان عن كفرهم وصدّهم عن سبيل الله، يشكل صداماً مع الحق ومع

---

١ . الحج: ٢٤.
٢ . الحج: ١٩.

الحياة، التي صرحت به الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ...﴾.[1]

وهو أيضاً بعدٌ عن السماء بل وعداءٌ صريح لها، وتحدّ لمشروعها الراشد و الهادي.. والصدُّ هو عين الطغيان بلا ريب، و فعل خطير مدمر مهلك، لا يقترفه إلا من لا يعقل ولا يتدبر ولا يفكر. وإذا عرفنا خطورة عملهم هذا، وما يترتب عليه من آثار سيئة على الناس، فإن اقتران الصدّ عن المسجد الحرام، وعطف هذا الصدّ عن المسجد الحرام على الصدّ عن سبيل الله، وعلى الكفر به، يجعل قضية كلٍّ من الصدِّ والإخراج قضية كبرى خطيرة وفعلة شنعاء وخطوة نكراء، وكيف لا يكون الأمر هكذا، وهم يصدّون عن بيت، قيّمته السماءُ بآيات قرآنية عديدة، فردُّ الناس عن قصده يساوي الصدّ عن سبيل الله، والكفر به، وهو منع للأفئدة التي تريد أن تهوي إليه تبتغي الهدى، ومنع عن هداه؛ وكل هذا يظهر لنا أن المسجد الحرام يمثل معلماً من معالم الهدى، ومحطةً من محطات سبيل الله إلى الخير والنور، فيجب أن يكون مكان التوبة هذا والاستجابة مفتوحاً على الدوام، لكل فؤاد يهوي إليه، ولكل قلب يتضرع فيه، ولكل نفس تريد التوبة فيه، ولكل يد ترفع للدعاء فيه، ولكل إنسان يريد أن يطيع الله فيه عبر عباداته وتأدية مناسك الحج والعمرة، ويجب أن يبقى مسموحاً لكل أمة تأمّه، تبتغي فضلاً من الله ورضواناً.. ويتعلمون فيه الأمن والسلام؛ لأن الأمن من صفاته، والسلام من خصائصه، وهما من أبرز وأهم صفات الله سبحانه وتعالى.

فالصدُّ عنه صدٌّ عن السلام والأمان والتحلي بهما.. السلام والأمان الذي يأمن به جميع المخلوقات، لا فقط الإنسان ينعم به، فالحيوان فيه آمن، والنبات

---

١ . الأنفال: ٢٤.

فيه آمن، وحتى القاتل فيه آمن حتى يخرج أو يُخرج منه..

الإخراج:

وإخراج أهله منه إخراج لهم من ذلك السلام و الأمان، وهو بالتالي اعتداء واضح عليهم، حرمان لهم جميعاً من هذه النعمة ونعم أخرى عديدة، يشهدونها في ساحات الحرم، يوفرها لهم هذا المسجد والعبادة فيه، وهي منافع كثيرة ومتنوعة: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ...**﴾.[1]

فالصدُّ والإخراجُ عملان هدفهما حرمان عباد الله تعالى عن التكامل الروحي والنفسي، وإبعادهم عن التوبة من الذنوب، وعن التخلي عن المعاصي، ومنعهم عن الثراء المادي والمعنوي، وهو ما يوفره المسجد المبارك والمناسك التي تؤدى فيه وفيما حوله، وقد تحدث عنه التنزيل العزيز بآيات منها: ﴿**ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُم وليُوفوا نذورَهم وَلْيَطَّوَّفُوا بِالبَيتِ الْعَتيق**﴾.[2]

فكيف لا يكون عملهم المتمثل بالصدّ والإخراج جريمةً خطيرةً يستحقون عليها العذاب الأليم في الدنيا والآخرة؟!

هذا، وأن الإخراج الذي وقع لأهل المسجد، من المعلوم أنه مفردة جاءت في التنزيل العزيز بمشتقات عديدة، وبألفاظ متناظرة: الإبعاد والهجرة والطرد والتشريد والنفي، وقد ذكرت في آيات عديدة كان منها: الأنبياء: ١٠١، النساء: ١٠٠، هود: ٣٠، الأنفال: ٥٧، المائدة: ٣٣.

والإخراج لغةً من الفعل خَرَجَ يخرُج خُرُوجاً: برز من مقرّه أو حاله وانفصل. وأخرج الشيءَ: أبرزه، وأظهره.

أخرج فلاناً من المكان: طرده منه، جعله يتركه ويغادره، أزاله عنه، ومنه

١. الحج: ٢٨.
٢. الحج: ٢٩.

أخرج المحتلَّ من بلاده، أخرج المستأجر من العقار ومنه أخرج فلاناً من حياته.

وقد عبرت عنه كما ذكرنا الآيات بألفاظ مترادفة متناظرة، منها الخروج ومشتقاته، ومنها الهجرة ومشتقاتها، ومنها الإبعاد و الطرد والتشريد و النفي..

هذا، ولعلَّ الإخراج في الاصطلاح الشرعي هو الانتقال من مكان إلى مكان، أو من دار إلى دار بالنفس اختياراً وبنية مشروعة أو بأسباب خارجة عنه قهراً أو قسراً..

وما إن وقع الإخراج وتعدد من قبل أعداء الله ورسوله، حتى وقعت الهجرة الأولى للمسلمين إلى الحبشة، فالهجرة للمدينة، ثمَّ الهجرة المباركة لرسول الله ﷺ فكانت هجرته ﷺ: صورة صادقة ومؤلمة، تلك التي راح رسول الله ﷺ يرسمها لنا بكلماته، وقد لاحت في تقاسيمها آلامه، حين أخرجه قومه من وطنه الحبيب وأرضه المباركة الطيبة، فقد ذكر الترمذي في جامعه الصحيح عن عبدالله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً على الحزورة (التل الصغير) فقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إلى الله، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت».

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك».[1]

ولا زالت أصداء هذه الكلمات التي انطلقت منه ﷺ تؤلم كل من يقرأ سيرته، ويطلع على معاناته، وما لاقاه من الأذى وهو يؤدي رسالته، رسالة الخير والهدى والعطاء..

وهي صورة يشترك بها معه من تبعه ممن آمن بدعوته، وهم:

---

١ . صحيح سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل مكة،ح:٨٨٠ ، ح:٨٨٠ .

﴿... الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ...﴾.[1]

﴿... وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا...﴾.[2]

و الآيتان توضحان أنهم قد أخرجوا من ديارهم ومن أموالهم. وقد حملوا أحزانهم على فراق أرضهم وديارهم بما فيها من أهلهم وأموالهم، حتى غدت هذه الحالة ذكريات تؤرقهم، وتحضهم على تهيئة أسباب العودة لوطنهم.

وهي صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح للمهاجرين، أخرجوا إخراجاً من ديارهم وأموالهم، أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد، والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم في مكة.

والمخرج رجل يعيش مع الذكريات والآلام والأحزان على فراق الأرض والأهل والولدان والديار، وتتراءى له هذه الذكريات والمشاعر في كل موطن تطؤه قدماه، ويبقى الألم مرافقاً لهم والحنين ملازمهم. وأمل العودة لا يغادر مشاعرهم...

قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.[3]

يقول سيد قطب: وهي صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح للمهاجرين، أخرجوا إخراجاً من ديارهم وأموالهم، أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد، والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم في مكة: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ اعتمادهم على الله في فضله ورضوانه، لا ملجأ

---

١ . سورة الحشر: ٨ .

٢ . سورة البقرة: ٢١٨.

٣ . سورة الحشر: ٨ .

لهم سواه، ولا جناب لهم إلا حماه، وهم مع أنهم مطاردون قليلون، ينصرون الله ورسوله بقلوبهم وسيوفهم في أحرج الساعات، وأضيق الأوقات؛ ﴿**أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم وصدقوها بعملهم، وكانوا صادقين مع الله في أنهم إختاروه، وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه، وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس.

ويقول أيضاً: ونجد أن الأمر واضح في حسهم، مقرر في نفوسهم، إن أعداءهم أعداء لله ولدين الله، وقد أخرجوهم من ديارهم وسبوا أبناءهم، فقتالهم واجب، والطريق الواحدة التي أمامهم هي القتال، ولا ضرورة إلى المراجعة في هذه العزيمة أو الجدال..

إن من المعروف أنَّ البشرية في تاريخها الطويل قد تعرضت لأنواع الظلم والتعسف وأشكال الاستبداد والطغيان من قبل أناس تحكّموا فيها، أو تمكّنوا منها بشكلّ ما، وقد يقع هذا الظلم من قبل فرد لفرد آخر أو لعدد من الناس، أومن قبل جماعة أو طائفة أو أمّة لأخرى، ومن أنواع ظلم العباد بعضهم لبعض بإخراجهم، بتهجيرهم، طردهم، نفيهم، إبعادهم، تشريدهم من بلادهم وديارهم، بعد أن أرغموا على أن يهجروا كلَّ شيء حتى غدوا صفر اليدين من مالهم، تجارتهم، عيالهم، عشيرتهم، وغالباً ما يقع هذا بعد اضطهادهم وتعذيبهم، لإكراههم على الابتعاد لأرض أخرى غير أرضهم، وبلد آخر غير بلدهم، وشعب آخر غير شعبهم، ولحياة أخرى غير مألوفة عندهم لا في ظروفها ولا في عاداتها وتقاليدها ولا في إمكانياتها، عيشة أخرى لا عهد لهم بها، وقد لا يجد المُخرَجُ والمُهجّرُ والمطرود فيها استقراراً ولا ثباتاً، بل لا يجد نفسه إلا قلقاً مضطرباً، مشدودةً عواطفه وأحاسيسه بأهله الذين ولد بينهم وترعرع ونشأ بين أحضانهم، وبأرضه التي درج بين شعابها، وراح

يتنفس هواءها، ويشرب ماءها، ويأكل ثمارها، ويستثمر منافعها.. فما أقساه من ظلم! هذا ما ابتلي به الإنسان في مسيرته، وما زال الظلمة من سلاطين الجور وأعوانهم يمارسون تلك الأساليب بحق رعيتهم، فهنا مشرد وهناك مهجر وذاك معذب وهذا سجين وبين هذا وذاك دماء مسفوكة وكرامة مهدورة وشرف مستباح، فأرامل ويتامى وأموال كتب عليها الضياع..

وإنّ أبرز مثال للإخراج كعقوبة، هو ذلك الذي ذكرته الآية هو إخراج النبيﷺ والمؤمنين به من أهل بيته وأصحابه من مكة، وإن كان هذا ليس مختصاً بهﷺ دون إخوته الأنبياء السابقين، فآدمعليه السلام، أخرجه الشيطان من الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**﴾.[١] من النعيم والكرامة والجنة، ففقدان الجنة أول ثمرات الإخراج المرّة، وأول آثاره السلبية.

فقد عذبوا وأتباعهم وشردوا وأخرجوا من ديارهم كما تحدث عنه القرآن الكريم في آيات عديدة. حتى جعلوه خياراً من خيارين لهم إما هو أو العودة إلى ما هم عليه من شرك وكفر وبعدٍ عن الله سبحانه وتعالى:

﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**﴾.[٢]

﴿**قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ**﴾.[٣]

---

١ . الأعراف: ٢٧.

٢ . إبراهيم: ١٣.

٣ . الأعراف: ٨٨.

أو فرضوه عقوبةً لمن دعاهم إلى ترك الفاحشة:

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ*إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ *وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوَاْ أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.(١)

وفي سورة النمل:﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ*أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ* فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوَاْ أَخْرِجُوَاْ آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.(٢)

كما أن أسلوب الإخراج قد فعله أهل الكتاب، خلافاً لما جاءت به شريعتهم وتعاليم كتابهم التوراة، كما جاء في: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.(٣)

محذراً من خطورة متابعتهم في سيرتهم المذكورة هذه والاقتداء بهم: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.(٤)

فهذه السُّنّة السيئة، التي ذكرها التنزيل العزيز ولعلّ ذكرها فيه تسلية وموعظة وتثبيتاً لهﷺ لما لها من آثار نفسية خطيرة قد تقوّض قدرات الداعية

١ . الأعراف: ٨٠ ٨٢.
٢ . النمل:٥٦.
٣ . البقرة: ٨٤.
٤ . البقرة: ٨٥.

وتحبطـه قد مورست مع الأنبياء، فكلُّ نبيٍّ في أمته كان طريداً ممن لا يؤمنون بدعوته، وكان مهجوراً، ثمَّ مخرجاً ومهجَّراً، فمهاجراً بعد إكراهه، .. ورسول اللهﷺ كان واحداً من هؤلاء الأنبياء والرسل، بل كان الأكثر إيذاءً من بينهم كما جاء فيما روي عنهﷺ ذلك: «ما أوذي نبيٌّ بمثل ما أوذيت». وقد أكرهﷺ على اتخاذ قراره بمغادرة مكة مدينته العزيزة عليه كما روي عنه ذلك عن ابن عباس، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِﷺ لَمَّا أُخْرِجَ مِنْ مَكَّةَ: «إِني لأَخْرُجُ مِنْكِ وَإِني لأَعْلَمُ أَنَّكِ أَحَبُّ بلادِ اللهِ إِلَيْهِ وَأَكْرَمُهُ عَلَى اللهِ وَلَوْلا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُوني مِنْكِ مَا خَرَجْتُ مِنْكِ...».[١]

إنّ إخراجهم (الرسولﷺ وأتباعه) من ديارهم، تعدُّ هي أبرز ما تعرضوا له منذ بداية دعوتهم الأولى في مكة من قبل كبار زعماء مكة، الذين رأوا في دعوتهﷺ خطراً عظيماً على مصالحهم وزعامتهم.. وقد تناولت آيات قرآنية إخراجهم إضافةً إلى الآية عنوان مقالتنا:

ويقرر القرآن الكريم مناقب لهم وحلولاً عملية لظاهرة الإخراج بالإذن بالقتـال وفريضة الجهاد فى سبيل الله، قال تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ...**﴾.[٢]

﴿... **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ...**﴾.[٣]

﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ...**﴾.[٤]

---

١ . أنظر باب فضل مكة من مصادر الحديث.
٢ . الحج: ٣٩ ٤٠.
٣ . آل عمران: ١٩٥.
٤ . الحج: ٣٩.

الواحدي في أسبابه: قال المفسِّرون: كان مشركُو أهْل مكّة يؤذون أصْحابَ رَسُول اللهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَلا يزالُون يَجيئُون من بين مضروب ومجشوج، فشكوهُم إلى رسُول اللهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيقول لهم: «اصْبرُوا فإني لم أؤمر بالقتال»، حتى هاجر رسول اللهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فأنزل اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآية.

و قال ابن عباس: لـمّا أخرج رسول اللهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من مكة قال أبو بكر: إنّا للهِ وَإنّا إليه راجعُون، لنهلكن، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ**﴾ الآية.

قال أبوبكر: فعرفْتُ أنهُ سيكُونُ قتالٌ.

وأيضاً جاءت هذه الآية من سورة النحل وهي تصرح بهجرتهم: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾.[1]

الواحدي: نزلتْ في أصحاب النبيِّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بمكّة بلالٍ وصُهَيْبٍ وَخَبَّابٍ وَعَمَّارٍ وأبي جَنْدَلِ بْنِ سُهَيْلٍ أخذهم المشركون بمكّة فعذّبوهم وآذَوْهم، فبوّأهمُ اللهُ تعالى بعد ذلك المدينة.

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾

وهي منزلة قيّمة، فهؤلاء المُخرَجون وصفهم الله تعالى في كتابه وبهذه الآية أنهم أهل المسجد الحرام..

يقول الرازي: وأما قوله تعالى: ﴿**وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ**﴾ فالمراد أنهم أخرجوا المسلمين من المسجد، بل من مكة، وإنما جعلهم أهلاً له إذ كانوا هم القائمين

---

١ . النحل: ٤١.

بحقوق البيت كما قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.[١]

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾.[٢] فأخبر تعالى أن المشركين خرجوا بشركهم عن أن يكونوا أولياء المسجد.

وهذا الإخراج عدّته السماء أنّه أكبر من القتال في الشهر الحرام، كما هي حالة الأمور الأخرى وهي: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

ثم إنه تعالى بعد أن ذكر هذه الأشياء حكم عليها بأنها أكبر، أي كل واحد منها أكبر من قتال في الشهر الحرام، وهذا تفريع على قول الزجاج، وإنما قلنا: إن كل واحد من هذه الأشياء أكبر من قتال في الشهر الحرام لوجهين:

أحدهما: أن كل واحد من هذه الأشياء كفر، والكفر أعظم من القتال.

والثاني: أنا ندعي أن كل واحد من هذه الأشياء أكبر من قتال في الشهر الحرام وهو القتال الذي صدر عن عبدالله بن جحش، وهو ما كان قاطعاً بوقوع ذلك القتال في الشهر الحرام، وهؤلاء الكفار قاطعون بوقوع هذه الأشياء منهم في الشهر الحرام، فيلزم أن يكون وقوع هذه الأشياء أكبر.

سيد قطب: إنّ المسلمين لم يبدؤوا القتال، ولم يبدؤوا العدوان، إنما هم المشركون، هم الذين وقع منهم الصدّ عن سبيل الله، والكفر به والمسجد الحرام، لقد صنعوا كل كبيرة لصدّ الناس عن سبيل الله، ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون، ولقد كفروا بالمسجد الحرام، انتهكوا حرمته فآذوا المسلمين، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر سنة قبل الهجرة وأخرجوا

---

١ . الفتح: ٢٦.

٢ . الأنفال: ٣٤.

أهله منه، وهو الحرم الذي جعله الله آمناً، فلم يأخذوا بحرمته ولم يحترموا قدسيته، وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل.

وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام، ووضح موقف المسلمين من دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات، الذين يتخذون منها ستاراً حين يريدون، وينتهكون قداستها حين يريدون، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم؛ لأنهم عادون باغون أشرار، لا يرقبون حرمة ولا يتحرجون أمام قداسة، وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من الحرمات، التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة.

هؤلاء طغاة بغاة معتدون، لا يقيمون للمقدسات وزناً، ولا يتحرجون أمام الحرمات، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة، يقفون دون الحق فيصدّون الناس عنه، ويفتنون المؤمنين، ويؤذونهم أشد الإيذاء، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام.

ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم «الحرمات» و «المقدسات» ويرفعون أصواتهم؛ انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام!

فكيف يواجههم الإسلام؟ يواجههم بحلول مثالية طائرة! إنه إن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح، ولا يتورعون عن سلاح، إنّ الإسلام لا يصنع هذا، لأنه يريد مواجهة الواقع لدفعه ورفعه، يريد أن يزيل البغي والشر، وأن يقلّم أظافر الباطل والضلال، ويريد أن يسلم الأرض للقوة الخيرة، ويسلم القيادة للجماعة الطيبة...

إنّ الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات، ويشدد في هذا المبدإ ويصونه، ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر، وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان.

إنّ الإسلام يدفع الجماعة المسلمة إلى الضرب على أيدي الظالمين، وإلى قتالهم وقتلهم وإلى تطهير جوّ الحياة منهم، هكذا جهرة وفي وضح النهار...[١]

وأما القرطبي فمما ذكره أن معنى الآية على قول الجمهور: إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصدّ عن سبيل الله لمن أراد الإسلام، ومن كفركم بالله وإخراجكم أهلَ المسجد منه؛ كما فعلتم برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكبر جُرْماً عند الله.

ثمَّ راح يذكر ما أنشده عبدالله بن جَحش رضي الله عنه في هذه المناسبة:

تَعُـدُّون قَتْـلاً في الحـرام عظيمةً ... وأعظمُ منه لو يَرَى الرُّشدَ راشِدُ
صُدُودكُـمُ عـما يقـول مُحمّـدٌ ... وكُفـرٌ بـه واللهُ راءٍ وشـاهِدُ
وإخراجكم من مسجد الله أهلَه ... لئـلا يُـرى لله في البيـت سـاجدُ
فإنّـا وإنْ عيّرتمونـا بقَتْلـه ... وأرجفَ بالإسـلام باغٍ وحاسدُ
سَقَيْنا من ابنِ الحَضْرميّ رماحنا ... بنَخْلَـةَ لمّـا أوْقَـد الحَـربَ واقـدُ
دَمـاً وابـنُ عبـدالله عثـمان بيننا ... يُنازعـه غُـلٌّ مـن القِدِّ عانِـدُ.[٢]

ما أن وقع الإخراج وتعدد من قبل أعداء الله ورسوله، حتى وقعت الهجرة الأولى للمسلمين إلى الحبشة، فالهجرة للمدينة، ثمَّ الهجرة المباركة لرسول الله ﷺ.

وهذه الآية تحكي إخراجه ﷺ:

١ . في ظلال القرآن، الآية.
٢ أنظر الجامع لأحكام القرآن: الآية.

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[١]

وقد توفرت هذه الآية على أوقات ثلاثة، فقد تكررت «إذ» مرات ثلاثاً فيها:

وقت إخراجه ﷺ.

وقت مكوثه ﷺ في الغار.

وقت قوله ﷺ لصاحبه: ﴿**لا تحزن إن الله معنا...**﴾.

ثمَّ إنّ الآية صريحة في أنّ المشركين هم الذين أخرجوه، كما أن عنادهم وتآمرهم عليه وعلى أصحابه، كل ذلك اضطره إلى مغادرة مكة مدينته العزيزة، ومكان ولادته، ونشأته، ودعوته.. ولكن هذا الإخراج، مع أنه حمل مخاطر وآثاراً مؤلمة، فقد ترك ثماراً على الساحة المسلمة، بعكس ما خطط له وتمنّاه المشركون، فكانت الهجرة فتحاً كبيراً وأفقاً واسعاً، انطلقت فيه الدعوة المباركة للإسلام للعالمين ودولةً ومجتمعاً... لقد حولت السماء هذا الإخراج هدفاً آخر غير الذى أراده مشركو مكة، فهم أرادوا قتله ﷺ، ولما عجزوا عن ذلك، وحين خرج من قبضتهم، ظنوا أنّ دعوته سوف تختنق بالعزل عن الناس، لكن الله تعالى أخرجه لتتسع الدعوة وكأنه تعالى يقول لهم: لن أمكنكم من أن تخرجوه مخذولاً، وسأخرجه قوياً مدعوماً بنصري وتسديدي..

فكانت هجرته ﷺ فرجاً ونصراً مؤزراً، وصورةً رائعةً يشترك بها معه من تبعه ممن آمن بدعوته، وهم: ﴿**... الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ...**﴾.[٢]

١. التوبة: ٤٠.

٢. الحشر: ٨.

﴿... وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا ...﴾.[١]

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ...﴾.[٢]

فبعد ما تعرضوا له من أذًى وتشريد وتعذيب، جاء إبعادهم وإخراجهم، أو إكراههم على ذلك، وهذه الآيات توضح معاناتهم، وأنّ سببها يتلخص بتمسكهم بدينهم وإعلانهم لوحدانيته تعالى كما عرف بذلك صوت بلال الحبشي أحد المعذَبين من قبل أبي جهل زعيم المشركين، والعدوّ اللدود لرسالة السماء، كان شعاره الذي يصرخ به: أحدٌ أحدٌ أحد، والسياط تنهال عليه، وثقل الحديد على صدره، و رمضاء الحجاز تحرق جسده تحت أشعة شمس حارقة، ولم ينفك عن ترديد ذلك، وبالتالي فقد أخرجوا من ديارهم ومن أموالهم وأهليهم. وقد حملوا أحزانهم على فراق كل هذا، حتى غدت هذه الحالة ذكريات تؤرقهم، وتحضهم على تهيئة أسباب العودة لوطنهم، فكان لهم ذلك ولو بعد حين: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَاَجْرُ الْاٰخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.[٣]

وجاء هذا الوعد الإلهي بنصرة المؤمنين، وتطييباً لهم ومكافأةً لما صبّه عليهم المشركون من أنواع الظلم، ولما هجروه في ديارهم من أهل ومال.. لقد حظي المهاجرون بأجر عظيم وثواب جزيل! ولم تكتف السماء بهذا الأجر لهم، بل جعلتهم أهل المسجد الحرام، وأذنت لهم بقتال كلّ من ظلمهم وأخرجهم منه. وبعد أن صرّحت بأن ذنبهم وجريمتهم في نظر أعدائهم أنهم يقولون ربنا الله، وهي منقبة عظيمة اعترفت السماء بها، ووصفتهم بها، وهي تعدُّ منزلةً جليلة،

---

١ . البقرة: ٢١٨.

٢ . الحج: ٤٠.

٣ . النحل: ٤١.

دونتها السماء لهم لتخلد في سجلهم في الدنيا والآخرة...

إذن بالإخراج بدأت الهجرة، بل الهجرتان من مكة. وصارت صفةً يُتفاخر بها، فهذا صاحب هجرة وذاك صاحب هجرتين،.. وكانت نتيجة هذا الإخراج بالعكس مما أرادته قريش منه، وصار هجرةً مباركةً، وفاتحةَ أملٍ، وبارقةَ نصرٍ، انتهت بعودته صلى الله عليه وآله وأصحابه المهاجرين معه إلى مكة المكرمة، وهم فاتحون لها ظافرون بما أعده الله تعالى لهم من نصرٍ وأجرٍ عظيمين، وهو وعدٌ وعده ربُّه به، وبشارة له وللمسلمين بردّهم إلى مكة على قول قاهرين لأعدائهم، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.[1] والمعاد هو مدينته الحبيبة على قلبه التي قال عنها وهو يغادرها مكرهاً: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إلىّ، ولولا أنّ قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك!».

وقد تحدثت عنه أوائل سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً * هُوَ ٱلَّذِيۤ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوۤاْ إِيماناً مَّعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾.

وقد سميت السورة بالفتح تخليداً لهذا الحادث وتعظيماً له، وتنبيهاً لأهدافه الكبيرة على الإسلام والمسلمين، وتذكيراً لهم به ولأجيالهم على مرِّ الأزمان حين يقرأون التنزيل العزيز، والسيرة النبوية المباركة!

---

١ . القصص: ٨٥ .